المكان الروائي في "سقيفة الصفا"

د. إبراهيم بن محمد الشتوي
قسم الأدب - كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تعود أهمية الكتابة عن رواية (سقيفة الصفا) إلى سببين: أولهما أهمية شخصية الكاتب المدروسة (حمزة بوقري)(١) بوصفها شخصية لم تجد العناية التي تستحقها موازنة بغيرها من شخصيات الأدب السعودي. وتتمثل هذه الأهمية بوعيها المبكر بقيمة التخصص في جانب من جوانب الثقافة والأدب، ففي المرحلة التي ظهر فيها الكاتب كان أغلب الكتاب يميلون إلى الكتابة الشاملة، فيكتبون الشعر إلى جانب المقالة والقصة، بينما نجد أن (حمزة بوقري) يتجه ناحية الفن القصصي، والقصة القصيرة على وجه الخصوص، دراسة، وترجمة، وتأليفاً. وجاء هذا العمل القصصي موضع الدراسة نتاج هذه الخبرة النقدية والكتابية، وتطوراً كبيراً لتلك التجربة، وهو ما يميزه عن تجارب الآخرين من معاصريه في هذا الحقل.

وتمثل أهمية النص الذي بين أيدينا ثاني السببين، فقد لقيت الرواية عناية من الدارسين، فعدها السيد محمد ديب "وثبة كبيرة في

---

(١) حمزة محمد بوقري، ولد في الطائف، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمكة، ثم ابتعث إلى كلية الآداب جامعة القاهرة، وحصل منها على درجة اللسانس، عمل في الإذاعة السعودية، وإدارة المطبوعات، وترقي حتى صار وكيلا لوزارة الإعلام، ثم تفرغ للأعمال التجارية إلى أن توفي - يرحمه الله - سنة ١٤٠٣هـ؛ انظر التعريف بالكاتب في ظهر كتاب: حمزة بوقري، بائع التبغ، الطبعة الأولى، (تهامة، جدة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، وحمزة بوقري، القصة القصيرة في مصر ومحمود تيمور، الطبعة الأولى، (د.ن. الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

الرواية السعودية"(٢)، وأكد آخرون على النضج الكبير الذي تميزت به(٣) حتى عدوها مما "يستحق أن ينسب إلى الروايات العالمية"(٤)، وبناء على هذه القيمة جاء تناول الدارسين لهذا النص، والتركيز على عنصر المكان فيه بصفته أبرز عناصره الفنية.

مفهوم المكان:

يأخذ المكان منزلة كبيرة في العمل الروائي، فهو كما تصفه سيزا قاسم "الإطار الذي تقع فيه الأحداث"(٥)، وقد اهتمت الدراسات الروائية مؤخراً بالمكان وأثره في النص الروائي، وتحوله من عنصر مكمل إلى عنصر دال في بناء الرواية يصبح مثل الشخصية، أو الحدث الروائي.

يتعاطى الدارسون مصطلحين اثنين في دراساتهم للمكان الروائي، الأول: المكان، والثاني: الفضاء، ويذهب بعضهم إلى التفريق بينهما بناء على أن المكان يتصل بالجزء، بينما يكون الفضاء" مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة"(٦)، فالعلاقة بين المكان والفضاء تقوم على أن "الفضاء... شمولي. إنه يشير إلى (المسرح) الروائي بكامله. والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقاً بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي"(٧)، في حين يرى آخرون أن الفلاسفة المسلمين قد استعملوا المكان للدلالة على الحيز مجرداً عن الشيء الذي يحتله ويجسده كمفهوم

---

(٢) فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور، الطبعة الثانية، (القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ص٣٠٨.

(٣) انظر د. محمد صالح الشنطي، فن الرواية في الأدب العربي السعودي المعاصر، الطبعة الأولى، (جازان، النادي الأدبي، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠)، ص٦٨.

(٤) أحمد فضل شبلول، جماليات المكان في رواية سقيفة الصفا، قوافل، الرياض، العدد ٥، السنة ٣، جمادى الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٩٧.

(٥) بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الطبعة الأولى، (بيروت، دارالتنوير، ١٩٨٥م)، ص١٠٢.

(٦) د. حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، الطبعة الثانية، (بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م)، ص٦٤.

(٧) المرجع السابق، ص ٦٣.

قائم بذاته مستقل عن محتواه وهو بهذا يصبح مقابلا لمفهوم الفضاء (Space)، و"يحوز على المشروعية في التداول النقدي"(٨)، وبناء عليه يصبح الاختلاف في المصطلح لا يعود إلى الاختلاف في دلالة الوضع، بمقدار ما يعود إلى التعود والانتشار، حيث "شاع استعمال مصطلح المكان في المشرق العربي، والفضاء في المغرب العربي"(٩).

وعلى هذا فإن الدراسة ستتعاطى مصطلح المكان، في عنوان الدراسة، وتقصد به الفضاء، بناء على اتجاه المشارقة السابق الورود، وتساويه في الدلالة على المعنى معه، وستراوح بينهما في الاستخدام في الدراسة.

المكان في (سقيفة الصفا):

يعد المكان في (سقيفة الصفا)، من أهم القضايا التي يتناولها النص، وذلك ابتداء من العنوان الذي يعني أن ما يحويه هذا الكتاب بين دفتيه هو سقيفة الصفا، وسقيفة الصفا هي إحدى الأمكنة التي ترد في النص وتأخذ موقعاً محدداً بينها. وقد انتبه عدد من الذين تناولوا هذه الرواية إلى أهمية المكان فيها، فجاء تناولهم لهذا النص في حقل دراسة البيئة بجانبيها الزماني والمكاني(١٠)، وأشار الدكتور القحطاني إلى عبقرية الكاتب، وقدرته على استثمار خبرته في التعامل مع النصوص العربية والأجنبية دارساً ومترجما في التوظيف الفني للمكان في الرواية(١١)، ومن هنا فإن دراسة المكان في النص تأتي بمثابة الكشف عن أهم جوانب النص الفنية، وأبرز ما يحيل إليه من دلالات.

---

(٨) خالد حسين الحسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً، كتاب الرياض ٨٣، (الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، ٢٠٠٠م)، ص٨١.

(٩) المرجع السابق، ص٨٠.

(١٠) انظر: محمد السيد ديب، مرجع سابق، ص٣٠٧؛ ومحمد صالح الشنطي، مرجع سابق، ص٦٢.

(١١) انظر: د. سلطان القحطاني، الإبداع الروائي في عقدين، أبحاث الملتقى الأدبي عقدان من الإبداع الأدبي السعودي، الطبعة الأولى، القصيم، النادي الأدبي، ١٤٢٣هـ)، ص٢٣٨.

يذكر أحد الدارسين أن الدراسات في المكان الروائي لم تكتمل بعد، وأنه "لا وجود لنظرية قائمة في التفضيء السردي"(١٢)، وهو ما يعني أن هذه الدراسات المتعددة المتجهة إلى النص الروائي هي في أغلبها أفكار عدة، ومختلفة في هذا الصدد، ومن هنا فإن الدراسة هنا لا تلتزم نظرية محددة بمقدار ما تحاول طرح أفكار عدة لدراسة ظاهرة المكان في النص الروائي، ومحاولة الكشف عما يمكن أن يؤديه المكان في تجلياته المختلفة في النص من حيث وضوح المكان أولاً وقيمته في الموقف الكلي للنص ثانياً.

يحيل النص إلى عدد من الأمكنة، تتسم جميعاً بأنها ذات بعد واقعي، لكن النص الروائي نص لغوي "لا يشاكل الواقع المادي ولا يحاكيه وإن بدا كذلك وحصل عند القارئ شعور من هذا القبيل"(١٣)، ومن هنا فإننا لا نستطيع الاعتماد على البعد الواقعي في معرفة هذه الأمكنة لا سيما أن الناص في عالم النص التخييلي لا يعرف هذه الأمكنة، ولا يحدد العلاقة بينها من حيث الجزئية والكلية، فنحن لا نعلم من النص مثلاً ما موقع مكة من سقيفة الصفا، وهل (مكة)، مثلاً اسم محل داخل سقيفة الصفا، أو أن سقيفة الصفا مكان داخل مكة، وهو الأمر الذي ينطبق على عدد من الأمكنة المذكورة في النص، ولذا فإننا سنستعين بالبعد الواقعي للمكان في تحديد ملامح المكان التخييلي في النص، وسننطلق من الواقعي في كشف علاقات الجزئية والكلية بين الأمكنة والحكم عليها، دون أن نتجاوز ذلك إلى إلغاء ملامح المكان التخييلي، ومحاولة النص تقديم صورة جديدة للمكان، وطريقة تقديمه.

---

(١٢) هنري متران، المكان والمعنى، الفضاء الروائي، ترجمة عبدالرحيم حزل، (المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢م)، ص١٣٥.

(١٣) محمد ناصر العجمي، الظاهر والخفي في النص: القصة نموذجاً، صناعة المعنى وتأويل النص، (تونس، كلية الآداب، ١٩٩٢م)، ص٣٢٥.

طريقة تقديم مفردات المكان:

يقوم النص الروائي في بنائه على نمطين من الكتابة: الوصف، والسرد. يمثل الوصف أداة تشكل صورة المكان، بينما يشكل السرد أداة الحركة الزمنية في الحكي(١٤)، وعلى هذا يصبح تقديم المكان الروائي من مسؤوليات الوصف ووظائفه بالدرجة الأولى، وهو ما يعني أنه يستمد قيمته من ارتباطه بعنصر من عناصر البناء الروائي. إلا أن الدلالة على صورة الشيء المسرود في النص الروائي ليست مقتصرة على المقاطع الخاصة بالوصف، ولكنها تتجاوزه لأن تكون مستنبطة من مقاطع السرد، ومن هنا جاءت مقولة (جيرار جنت G. Genette): "إن الوصف من غير حكي أشد صعوبة من الحكي بدون وصف"(١٥)، وهو ما يمكن أن يسمّى السرد الوصفي، ويكون قسيماً للحكي الخالص في السرد، ومن هنا جاء المكان في هذا النص على طريقتين: الوصف الخالص. والسرد الوصفي، وسنبدأ بالحديث عن السرد الوصفي؛ لأنه السمة الغالبة في تقديم المكان.

١ - السرد الوصفي:

اعتمد النص تقنية تقديم المكان من خلال الحكي في تقديم معظم أجزاء المكان الروائي، فجاءت معظم الأمكنة المركزية عن هذا الطريق: المنزل، المدرسة، المسجد، الشارع، واتسمت هذه التقنية بعدم الخوض بتفصيلات المكان الدقيقة، ودمج المكان في أجواء الحياة في النص، وهو ما يعني بعث الحياة في المكان، وقد أدى الاعتماد على هذه التقنية إلى تقديم المكان من خلال الوظيفة التي ينهض بها في المكان الكلي، وليس من خلال صورته، الأمر الذي جعل ورود صورة المكان درجة ثانية بعد وظيفته، وجعل هذه الأمكنة بمثابة البؤر النصية التي يقوم عليها العمل الروائي، ومن هنا يمكن أن نعد النص

---

(١٤) انظر: حميد لحمداني، مرجع سابق، ص ٨٠.

(١٥) ميشيل رايمون، التعبير عن الفضاء، الفضاء الروائي، مرجع سابق، ص٤٣.

قد استخدم تقنية المسكوت عنه المعروفة، والاكتفاء بالجزء عن الكل، وكأن ذكر المنزل، أو المدرسة، أو المسجد يعني حضور كل هذه الدلالات التي تحويها، مما يعني أنها عوالم متضمنة في النص، وهو ما جاء النص موحياً بها، حين جعل حركة النص ترتكز عليها دون أن يعنى بتفصيل أجزائها، وذكر تفصيلاتها، اعتمادا على خلفية المتلقي الفكرية عن هذه الأماكن. هذه السمة - السرد الوصفي - أسهمت في دمج المكان في النص الروائي بصفته جزءا من فعل السرد، وهو ما انعكس على موقع هذه الأماكن في النص، وعلى وظيفتها فجاءت أشبه ما تكون بأيقونات نصية تحيل على معاني في ذهن المتلقي، وتمارس دورها في النص من خلال ما ترتبط به في ذهنه، والأصول التي تنتمي إليها، دون أن يكون هناك ظهور كامل ودقيق لهذه الأماكن في النص، كما أنها لم تأخذ حيزاً من المكان الكلي للنص، ومن هنا فإن الصورة التي تظهر في ذهن المتلقي عن هذه الأماكن هي صورة تعتمد في جزء كبير منها على ثقافته عنها، وليس عن المكان وهذا الغياب في ملامح المكان التفصيلية يؤدي وظيفة نصية سنتحدث عنها فيما بعد.

٢ - الوصف:

ينهض الوصف بوظيفة كبيرة في العمل الروائي، وهو كما سبق القول قسيم السرد، ومن خلاله يقدم الكاتب جوانب الفضاء في النص المختلفة، ويسميه بعض الدارسين (الوقفة) والذي يعني المقاطع الوصفية الخالصة، وسمي الوقفة؛ لأن الحكي يتوقف فيها، ويكون الوصف هو السائد، وقد ظهرت هذه المقاطع الوصفية الخالصة في النص، خاصة عند تقديم بعض جوانب المكان التي لا تتصل بحدث الرواية، ولا بالشخصية الرئيسة فيها.

وقد قدم النص عن طريق الوصف أجزاء من المكان لم تكن قدمت من قبل، وأماكن أخرى لم تكن ظهرت في السرد الوصفي، وقد جاء

على طريقة الوصف الخالص عدد من الأمكنة، فقدم الكاتب المنزل بصورة تفصيلية، غرفه، وأجزاءه، وقدم أيضا بعض الجوانب في المدرسة لا تمثل أجزاء من المكان بمقدار ما تمثل جزءاً من الفضاء العام الذي يحيط بالعملية التعليمية، فتحدث عن أساليب الأساتذة في التعامل مع الطلاب، حيث تشيع التسمية بالألقاب، والسخرية بهم، والأجواء التي تسود بين الطلاب أنفسهم من السخرية، أو النزاعات.

وتمثل مقاطع الوصف في النص جزءًا كبيراً منه، وذلك أنها تحاول أن تتناول ملامح عدة من المكان، وتقدمه حتى ولو لم تكن هذه الأمكنة حقلاً للحدث الروائي، أو أن الشخصية الرئيسة لم تكن متصلة بها؛ مما جعل هذه الأماكن المقدمة لا تمثل فضاء لجزء من الحدث الروائي الكلي، ولا تتصل بالنص الروائي إلا بصفتها جزءاً من المكان الكلي الذي دار فيه النص، وإذا وازنا بين عدد فصول النص المخصصة لتقديم جوانب المكان، والتي تندرج تحت الوصف، والفصول التي جاء فيها المكان فضاءً لأحداث في النص تنتمي إلى الشخصية الروائية لوجدناها تأخذ النصف، حيث انقسمت الفصول البالغة أربعة وثلاثين فصلاً بينهما بالتساوي، وهو ما يكشف مقدار الحيز الذي شغله الوصف من النص.

وإضافة إلى ما سبق قوله عن وظيفة الوصف الساعية لتقديم المكان، فإن هناك سؤالاً عن قيمة الوصف بالنسبة للسرد، وأثره في تكوين دلالة النص، وتقديم جوانب من الدلالة لم تظهر من قبل. هل هناك وظيفة للوصف غير تقديم المكان؟

سبقت الإشارة إلى أن الوصف يستمد قيمته من قدرته على تقديم المكان، وإذا كان السرد يمكن أن يقوم بوظيفة الوصف من خلال ما يسمى السرد الوصفي، فإن هذا يعني تجريد الوصف الخالص من وظيفته الخاصة التي هي تقديم المكان، وهو ما يحصره في قيمته

التزيينية التي كان عليها(١٦)، الأمر الذي دفع بعض الدارسين إلى ربط أهمية المكان في الرواية، باندماجه في السرد أو تحوله إلى عنصر من عناصره(١٧)، ويرون أن المكان أو الفضاء قد تحول إلى جزء من النص، وليس حلية كما سبق القول، ورأينا أيضا بعض المدارس التي تبتعد عن الوصف بحجة عدم اهتمام القارئ(١٨)، ومن هنا يأتي سؤال البحث عن قيمة للوصف غير التزيين، وتقديم المكان الذي يقدم من خلال السرد الوصفي، الذي تظهر فيه الطاقات الوظيفية التي يمكن أن يقدمها الوصف فيما سوى ما ذكر والذي يتمثل في الدلالة التي يمكن أن يقدمها النص.

هذه الدلالة/ الوظيفة يمكن كشفها من خلال اللغة التي يستخدمها الناص في وصف المكان وتقديمه، والمفردات التي قد تنتمي إلى مرحلة زمنية دون أخرى أو بيئة مكانية أيضاً دون أخرى، كما يمكن أن تظهر من خلال موازنة المقاطع الوصفية بعضها ببعض، واستخراج دلالة متكاملة منها تسهم في تأويل النص، أو تضاهي دلالة السرد بوصفه قسيماً للوصف مستقلا عنه، كما يمكن أن نبحث في علاقة الوصف بالواصف أو بمعنى آخر علاقة الشخصية بالمكان الموصوف وهو ما يمكن أن نسميه صياغة الشخصية للمكان. من هنا يمكن القول بأن الوصف ينهض بعملية موازية للسرد في النص يمكن من خلالها إيضاح موقف السارد أو الشخصية الروائية وكيف تعيش، وهو ما سميناه بصياغة الشخصية للمكان وسنتناوله في موضعه، وما الذي دفعها لفعل أفعالها، مما قد لا يستثمره الوصف في هذا النص بهذه الصورة، ولا يمنع من استثمارها في نصوص أخر.

---

(١٦) انظر: سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، ص١١٠.

(١٧) انظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الطبعة الأولى، (بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م)، ص٢٨.

(١٨) انظر: ميشيل رايمون، التعبير عن الفضاء، مرجع سابق، ص٤٤.

في هذا النص نجد الوصف ينهض بدور كبير في تقديم المكان، ويكشف من خلال اللغة التي يعتمدها في تصوير الموجودات وأسمائها عن ملامح البيئة الزمنية والمكانية للموصوفات كما في المقطع الآتي الذي يصف فيه الخالة أسماء وهم في رحلتهم إلى المدينة: "انتحت جانباً من العشة... وبدأت تزين نفسها... وتمشط شعرها وتدلكه بشيء من زيت «النارجيل» المخلوط ببعض الأعشاب... وعندما ارتاحت لمرآه... وضعت فوقه مثلثاً من القماش الأبيض ينتهي طرفاه بخيط يلف في مؤخرة الرأس يسمى «الشنبر» ثم «المحرمة» التي لفت فيها عقيصتها... فاللفاعة البيضاء المطرزة الحواشي... والتي كانت تسمى «المدورة»... وبعد ذلك زججت حاجبيها واكتحلت"(١٩)، فألفاظ مثل: الشنبر، المحرمة، المدورة هي ألفاظ خاصة في المكان الذي ينقله السارد قد لا تكون معروفة في غيره، ولذا فهي جزء منه، ومثلها الألفاظ التي يستعملها في وصف منزله والتي تنتمي إلى المكان نفسه، أو وصفه للفعل الذي قام به وهو حزين يواجه صدمة نفسية: "ولم ينقذني شيء سوى الركض نحو الحرم - ملاذي الأخير دائماً - حيث أخذت أطوف حول الكعبة - سبعاً بعد سبع - حتى لم أعد أدري كم سبعاً طفت، وقد أنهيت ذلك بشربة زمزم دافئة، أخذتها من دلو البئر مباشرة... حتى أحسست أن أضلاعي تكاد تتفقص من الامتلاء"(٢٠).

هذه الألفاظ المستخدمة في تصوير الأشياء والأجزاء المختارة في الموصوف تتفق مع البيئة المكانية التي تفرق بين أن يشرب الإنسان زمزماً من الدلو أو من إحدى تنكات الصفيح المجاورة، والتي تجد الحرم ملاذا دائما لها، وتربط هذه الأفعال بسلسة تؤدي معنى واحداً متكاملاً: الحرم، الطواف، ماء زمزم، الشرب حتى تتقفص الأضلاع.

---

(١٩) حمزة بوقري، سقيفة الصفا، ص٤٣.

(٢٠) المصدر السابق، ص ١٧١.

على أن لغة الوصف لا ترقى لأن تتماهى مع المكان، أو تحاول أن تقدم شعور المكان حيال الأشياء الأخرى مما يسمى بأنسنة المكان، أو صورة المكان في وعي السارد والتحول إلى اللغة الشعرية، فالنص يلتزم في معظم أجزائه النقل الخارجي للمكان، وبوصفه ناقلاً من الخارج دون أن يقدمها من الداخل أو يوحي بتداخله معها.

الجانب الآخر الذي تبدو فيه وظيفة الوصف وهو الوقوف على مقاطع الوصف بوصفها مضاهية للسرد، والخروج بدلالتها مستقلة عنه، بعد الموازنة بين هذه المقاطع واستخراج الدلالة مكتملة، وهو ما فعلته هذه الدراسة في الحديث عن علاقة المكان بعناصر النص الأخرى وفي خاتمة البحث.

المكان من خلال مفرداته:

تختلف هذه الأمكنة فيما بينها من حيث حجم ظهورها في النص، والقدر الذي تنهض به في الحدث، ومن ثم مقدار تكرارها، فبعضها يشكل مرتكز الحدث في النص، والأخرى يرد ذكرها مرة واحدة عرضاً لإيضاح فعل قامت به الشخصية، ومن هنا يمكن أن نقسم هذه الأمكنة بحسب أهميتها في النص إلى أمكنة مركزية، وأمكنة هامشية، الأمكنة المركزية هي التي دارت فيها معظم الأحداث، والهامشية التي وردت في القص مرة أو مرتين لوقوع أحداث قليلة فيها، ولكثرة الأمكنة الهامشية وقلة ورودها مقارنة بالأمكنة المركزية رأيت جمعها في نقطة واحدة موازية لإحدى الأمكنة المركزية.

١ - المنزل:

يأتي المنزل في النص فضاء مركزياً تدور فيه أجزاء من فعل القص، ويتسع ليشمل عدداً مختلفاً من أنشطة الحياة، كما يأتي متعدداً، بمعنى أنه يمثل أكثر من نمط، وأكثر من نوع، فالمنزل في النص في الأصل هو مكان المعيشة والحياة الذي يخلد إليه الإنسان

بعد العودة من العمل أو الدراسة، فهو يقابل الحياة الخارجية، وما فيها. ولذا وجدنا الشخصية الرئيسة تحتمي بالمنزل وهو يمثل عالماً متكاملاً أو وحدة اجتماعية بنائية متكاملة تماثل البناء الكلي للمجتمع أو تقابله، لها إدارتها الخاصة ونظامها الاجتماعي، ومواردها المادية، تحتمي بها الشخصية وتعدها عالمها الخاص الذي لا يطاله أحد، فهو يدخل ويغلق الباب خلفه لما رأى شبحاً ينتظره عند الباب(٢١)، ويذهب إلى المستراح يلقي الهموم التي لقيها في المدرسة(٢٢). في هذا البناء الاجتماعي تمثل الأم قمة الهرم الإداري، ومصرفة الأمور، ويقوم النظام الاجتماعي على العلاقة الحميمة بين أفراده وعناية كل واحد بالآخر، أما الموارد المادية فتتمثل كما ذكر السارد باعتماد الأسرة على إيجار شق من المنزل للقادمين إلى مكة في موسم الحج، إضافة إلى تربية الدواجن، واستكثارها، ومقايضة أصحاب المحلات بما يفيض في البيت من نتاجها، وتتولى الأم تدبير كل هذا وتدبير الطفل فيه.

ويمثل المنزل مكاناً تلتقي فيه الشخصية المقربين إليها، وهو المكان الذي يقضي فيه وقت الفراغ وشيئا من المتعة، وقد يتسع ليصبح مكاناً تقام فيه حلقة العلم، والدرس، والتثاقف العلمي، فينهض ببعض أعباء المدرسة، ويساندها، كما يكون مكانا يتم فيه اللقاء بين اللدات، وتنشأ فيه العلاقات الإنسانية الراقية الحميمة.

ويأتي المنزل متعدداً، ومختلفاً أيضاً، فهناك منزل الأسرة، وهناك منزل العم عمر، وهي تختلف فيما بينها من حيث طريقة البناء، والأثاث في داخلها، وهناك منزل المدير، ومنزل العمة أسماء، ومنزل مولانا، مما يمكن أن تكشف أنواعاً ودلالات أخرى تجاه أنماط السكان الذين ينزلون هذه المنازل، والفئات الاجتماعية التي يصنفون بحسبها.

---

(٢١) انظر: المصدر السابق، ص١٠٦.

(٢٢) انظر: المصدر السابق، ص١٧٠.

وتتخذ المنازل مواقع مختلفة بالنسبة للشخصية الرئيسة في النص من خلال قربها وبعدها عنه، فمنزلها، هو الأقرب، وتتحدث عنه بلفظ المنزل، بينما تذكر المنازل الأخرى بصيغ مختلفة: منزله، منزل الأستاذ، منزلها، أو البيت، ولا يظهر فرقٌ بين البيت و المنزل في نظرة الشخصية، أو استعماله الكلمة.

ولا يسعى النص عند الحديث عن هذه المنازل إلى تقديمها كلها، والمنزل الوحيد الذي توقف عند تفصيلاته هو منزل الشخصية الرئيسة، الذي يتكون من"عدة غرف يصعب وصف علاقة بعضها ببعض"(٢٣)، يكون في أوله دهليز طويل مظلم، ثم إلى اليسار غرفة مربعة، تسمى غرفة الضيوف، ويخدمها مستراح، يليها قسم آخر من المنزل يسمى الديوان، ويضم غرفة المعيشة، والطبخ، وغرفة خزن المواد الغذائية، وفي سطح المنزل غرفة النوم التي ليست سوى دكة مرتفعة عن مستوى السطح قليلاً، وفي الجهة الثانية من هذا المنزل قسم آخر خاص لبعض أجزاء السنة يتكون من حنية الفحم ثم ديوان آخر، وحنية أخرى تربى فيها الأرانب، وفي آخر الدهليز غرفة أخيرة مرتفعة قليلاً مستقلة عن المنزل، ولها مستراح، خلفه براحة صغيرة تربى فيه الدجاج.

ولا يبين بعد ذلك موقع هذا المنزل المقدم، من المنازل الأخرى سواء المذكورة أو المهملة، وهل يعد نموذجاً للمنازل في المكان الكلي، أم هو نموذج مستقل عن غيره، وإن كان يبدو من خلال تعداد مكونات منزل الشخصية، أنه لا يوجد في المنزل (روشان)، وهو ما يحويه (منزل العم عمر)، وقد أشار في موقف سابق إلى ما يمثله (الروشان) من وجاهة اجتماعية(٢٤)، مما يعني من جهة أخرى اختلاف المنازل، وتباينها، وعدم اهتمام السارد بتقديم هذا الجانب أكثر مما قدمه.

---

(٢٣) المصدر السابق، ص١٥٩.

(٢٤) انظر: المصدر السابق، ص١٣٩.

بالرغم من تسربه أحياناً في طريقة تقديم السارد للمنازل كما يبدو من المقارنة بين منزل (العم عمر) بمكوناته: صورة والده، المكتبة، جهاز التسجيل، فنجان الشاي، صينية الشاي وطبق من الحلوى، ومنزل الشيخ بمكوناته: عدة الشاي، القعدة على الأرض المتعبة، الأكل الدسم دائماً. هذا التقابل في المكونات بين المنزلين يقابله تقابل في المواقف من الأشياء وطريقة تعامل الساكنين فيه معه: (طريقة زواج وتقديم البنت وكيف يقضي الساكنون وقتهم)، وهو ما يعكسه موقف الشخصية الرئيسة منهما التي سارت في اتجاهين مختلفين من الاتجاهات الاجتماعية، أدى كل واحد منهما إلى طريق مختلف عن الآخر، وانعكس على موقف المجتمع المكي منهما، الشخصية الأولى صدرت عليه نعوت سلبية: (فرمسوني، جاسوس إنجليزي، يسافر إلى بلاد النصارى، الحديث عن الصورة) بخلاف الشخصية الثانية التي جاء النعت واضحاً: مولانا، "شيخ جليل مثل مولانا يعرض عليك ابنته وبدلا من أن تسر لذلك ترتعد من الخوف"(٢٥).

ويمكن أن ندخل وصف السارد منزله في إطار هذه المقارنة فنكشف من خلاله الفروقات التي تتمثل بين الفئات الاجتماعية المختلفة، حين يقول في الحديث عن الأثاث: "وضع فيها زير الماء الكبير - المغربي، الذي يمثل أعز ما في البيت وأكثر أشيائه نفعاً... غرفة النوم... الرئيسة في البيت - وهي غرفة لا سقف لها ولا جدران وكل أثاثها ثلاث «دكات» عريانة نهاراً... مفروشة ليلا بتلك الفرش التي كنا نطويها صباحاً ونضعها في ركن مغطى بمظلة من الصفيح... لا يضاف إلى ذلك سوى أربعة مسامير مثبتة في أربعة أركان تستعمل في ربط حبال تلك الآلة التي انقرضت من الدنيا هذه الأيام «الناموسية»"(٢٦).

---

(٢٥) المصدر السابق، ص٢١١ .

(٢٦) المصدر السابق، ص١٦٠.

٢ - المدرسة:

المكان الثاني الذي يأخذ جانباً كبيرا من مساحة الفعل السردي، هو المدرسة بما تمثله من فضاء كبير قضت فيه الشخصية الرئيسة شطراً كبيراً أو الشطر الأكبر من عمرها، وقد كانت هذه المدرسة على مراحل، تختلف فيما بينها في تسميتها، ومكوناتها، وفي موقعه فيها.

المدرسة الأولى كتاب البنات، ثم كتاب الأولاد، ثم المدرسة التحضيرية الأهلية، ثم المدرسة الفخرية، وتمثل المدرسة المكان الذي يتم فيه التعلم، كما يتم فيه إقامة علاقات مع الأصدقاء، وبداية الأعداء، مناوشات الصبية، ولعبهم أحيانا، كما تمثل المكان الذي يتم فيها تحول الإنسان من الطفولة إلى الرجولة، والكهولة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الصبا إلى المسؤولية، فهي تعد الإنسان إعداداً كاملاً، وهي تحتضنه في كل مراحل حياته. كما تمثل المدرسة هنا أداة وصل بين المكان الأصلي وامتداداته البعيدة، بحيث يتم إنشاء المدرسة، وتمويلها من مكان بعيد خارج المكان الأصلي، مما يعني أنها نقطة في المكان تدار من خارجه، وتتبعه، وهو ما يكشف حالة الفضاء الأصلي، ومدى حاجته للآخر البعيد.

وفي البعد الجغرافي للمدرسة كشف النص عن بعض الجوانب، كالاختلاف بين المدرسة والكتاب، والمدرسة التحضيرية، والمدرسة الفخرية، وجزء من ملامح تفصيل المدرسة، بما فيها الفناء الذي يلعب فيه الأطفال، لكن الجزء الأكبر الأهم هو السعي إلى تقديم الأجواء التي تسيطر على المدرسة المكان، والتي تصبح جزءاً من المكان بمفهومه الواسع، فتتناول الصلات التي تربط الطلاب بعضهم ببعض، والأساليب لتي يسلكها الأساتذة في تعاملهم مع الطلاب داخل المدرسة وخارجها، والكتب المقررة للدراسة، وهي كلها عناصر يمكن أن نصفها بأنها تسهم في تقديم الأجواء التي تحيط بالعملية التعليمية في المدرسة.

٣ - المسجد:

يقوم المسجد بعدد من الوظائف في هذا النص، فهو المكان المفتوح الذي يمكن للمرء أن يذهب إليه في كل ساعة من نهار أو ليل دون أن يجد من يعارضه، وهو المكان العام الذي يلتقي فيه الصغير، والكبير، والغني والفقير، والمبتدئ والعالم دون فرق بينهما، وهو المكان الذي يلتقي فيه الإنسان مع نفسه صافية، ويلقي فيه الهموم، كما يأتي مكاناً للدرس تقام فيه عدد من حلقات الدرس، وهو آخر الأمكنة التي يعبرها الميت قبل استقراره في قبره، أو يكون مناسباً للقراءة الحرة والمطالعة نظراً لوجود الضوء فيه، وقد يكون في هذا إشارة إلى التقاء الضوء الحسي الذي تبعثه المصابيح بالنور المعنوي الذي يبعثه المكان الطاهر والكعبة المشرفة في نفس الجالس، والناص قد أشار إلى هذين المعنيين في مواضع متفرقة من النص.

هو المكان الذي يلتقي فيه الإنسان مع نفسه صافية، ويلقي فيه الهموم

ويأتي المسجد في النص بعدد من الصيغ اللغوية: المسجد، المسجد الحرام، الحرم، المسجد النبوي. وإذا تجاوزنا الفرق الواضح بين المسجد الحرام والمسجد النبوي، فإن المسجد بهذه اللفظة لا يظهر الخلاف بينه وبين المسجد الحرام، ولا نعلم بعد ذلك هل النص يتحدث عن مسجد واحد، أو مساجد عدة بالرغم من الإشارة غير المتكررة إلى مسجد الحي، ومن هنا نتساءل عن الدور الذي ينهض به المسجد أهو خاص بمسجد الحي أم المسجد الحرام، وقد يكون لهذه التعمية، مقصدها من لدن الناص، حيث يريد أن يفيد بأن الوضع الذي يأخذه المكان بسبب ما يتم فيه من أحداث، هو وضع عام لكل مسجد.

٤ - الشارع:

يختلف الشارع عن الأمكنة الثلاثة السابقة من حيث نمط التكوين، فالشارع مكان "مفتوح ومحصور في الوقت نفسه. فهو مفتوح من

منفذيه اللذين نأتي إليه ونغادره منهما... والشارع يحصرنا وينغلق علينا من جانبيه"(٢٧)، ليس له ملامح خاصة، ويتسع لأنماط مختلفة من الأنشطة، كما يضم أمشاجاً مختلفة من الناس، بينما الأمكنة السابقة ذات بناء تركيبي محدد له ملامحه الخاصة، وهي ذات أنشطة محددة، ويؤمها أناس خاصون.

وقد اختلفت الصيغ في تحديد هذا المكان المفتوح، فهو الشارع، والطريق، والممر، والزقاق أحيانا، وعلى الرغم من أن الخلاف بين هذه الصيغ يعود إلى الفرق في العمومية، أو الفرق في نوع المكان، لكنه فرق ليس على إطلاقه، إذ المسميات تختلف حقيقتها مع تغير الزمن، ولا يمكن أن ندرك ما يعنيه كل واحد من هذه الأسماء على وجه التحديد ما دام النص لم يمددنا بسبب نتمكن خلاله من الوصول إلى حقيقة تلك المسميات.

وما قيل عن المسجد، وتعدده ينطبق أيضاً على الشارع هنا، فعلى الرغم من الاختلاف في الصيغ التي يوصف بها الشارع، فنحن لا نعلم في الغالب عما يتحدث بالتحديد، وهل هو شارع واحد، أم هي عدد من الشوارع؟ وهل الأحداث تتم كلها في مكان واحد أم في عدد من الشوارع؟ ومن هنا فإن الشارع هنا يظهر أنه مكان له دلالات معينة، ويمكن القول: إنه يظهر بصفته حالة اجتماعية، وليس مكانا محدد الملامح، يجري فيه نوع من الأحداث.

على الرغم من عدم تحديد صفاته، وملامحه، فقد تعددت الوظائف التي يقوم بها في النص، فهو مكان للبيع والشراء، عرض المنتجات، ومكان أيضا للخصومات، والمعارك التي تدور بين الفرقاء، وهو مكان اللعب، والمتعة، والقراءة والثقافة، ومكان للتعارف، فهو ليس محدد الوظيفة أو محصورها.

---

(٢٧) هنري ميتران، المكان والمعنى، مرجع سابق، ص١٣٩.

ويتصل بالشارع - بصورة كبيرة - الحديث عن المكان المفتوح والمغلق أو المكان الواسع والضيق بوصف الشارع في الأصل مكاناً مفتوحاً أو أبرز الأمكنة المفتوحة كما سبق القول، وهو أيضاً مكان يتنوع بين السعة والضيق مع ما يصحب الانفتاح والانغلاق والسعة والضيق من ظلمة أو ضوء، والاهتمام بدلالتهما أو دلالة المرادفات لهما (الظل، الشمس)، ففي وصفه منزله نجد عناية خاصة بهذه الصفات:

"كانت أرضاً مستطيلة تبلغ عند المدخل وعلى الشارع ما لا يزيد عن ستة أمتار فقط، ولكنها تمتد في العمق إلى ما يصل إلى ثلاثين متراً أو أكثر، ولهذا فعندما تدخل البيت تجد نفسك في دهليز طويل مظلم في أوله... وبعد أن تخطو بضعة أمتار تجد إلى يسارك بابًا يوصل إلى (المقعد) أو غرفة استقبال الضيوف، وهي غرفة مربعة لا تزيد مساحتها عن أربعة أمتار في أربعة، ويخدمها «مستراح» صغير به حنفية ماء مجصصة وفسحة صغيرة... وضع فيها زير الماء الكبير - المغربي، الذي يمثل أعز ما في البيت وأكثر أشيائه نفعاً - ثم استمريت بضعة أمتار أخرى في الدهليز وجدت باباً آخر، يصلك إلى فسحة تربط من الداخل بين المقعد سابق الذكر وبين الديوان الذي يمثل غرفة المعيشة، وغرفة الطبخ... وأيضاً غرفة خزن المواد الغذائية... ويمكنك أن تصعد إلى السطح الأول من تلك الفسحة فتجد نفسك في غرفة النوم... الرئيسة في البيت، وهي غرفة لا سقف لها ولا جدران وكل أثاثها ثلاث «دكات» عريانة نهاراً... مفروشة ليلا بتلك الفرش التي كنا نطويها صباحاً ونضعها في ركن مغطى بمظلة من الصفيح... لا يضاف إلى ذلك سوى أربعة مسامير مثبتة في أربعة أركان تستعمل في ربط حبال تلك الآلة التي انقرضت من الدنيا هذه الأيام «الناموسية»، والتي كانت تقينا أذى جيوش الناموس المفترس التي كانت «تطن» طيلة الليل من حولنا.

هذا الجزء من المنزل كان هو الجزء المستعمل من قبلنا طيلة العام تقريباً حتى يفد الحجيج فيصبح جزءاً مما يؤجر... وننتقل إلى جزء آخر في ذلك البيت الفسيح. ولو سرت في الدهليز إياه مترين آخرين فسترى ضوء الشمس؛ لأن هذا الجزء غير مسقوف، وهو يقودك إلى بقية الدهليز وإلى حنية الفحم ثم إلى ديوان آخر وفسحة صغيرة «وحنية» ثانية لنا نربي بها الأرانب، وهذا الجزء كان يمثل مقامنا وقت الموسم عندما يؤجر المنزل... أما الجزء الثالث والأخير فهو مجلس مرتفع يحتل الجزء الأخير من البيت نصعد إليه عندما نصل نهاية الدهليز الطويل حيث تجد غرفة مضيئة لها، سطح مستقل و«مستراح» كانوا يسمونه «طهارة»، وخلف ذلك المجلس برحة صغيرة إذا خرجت إليها عانقك جبل السبع بنات الشامخ بما تناثر فوق أكتافه من مساكن"(٢٨).

فنجد هنا ألفاظاً مثل: العمق، مظلم، غرفة لا سقف لها ولا جدران، عارية تماماً، ترى ضوء الشمس، غرفة مضيئة. وهي ألفاظ تعكس صورة المنزل في ذهن الشخصية والبؤر المؤثرة في مخيلته، ومثلها الغرف المترابطة فيما بينها من خلال فسحة صغيرة تمثل أبرز محلات المعيشة في البيت.

وتبدو هذه الصفات خاصة الظلمة والعتمة في تصوير الشخصية لمشاهد كثيرة؛ مما يعني تأثيرها في شخصيته، كما في تصويره صديقه سفيان "أدخله غرفة مظلمة" "سقيفة الصفا المظلمة حتى في النهار" "كان يمشي في الظل". هذا الحضور للظلمة، والضوء في المعالم في نفس السارد يوحي بمقدار حفرها في نفسه وتخوفه من الظلام، على أنه لا يبدو بعد ذلك كيف انبنى تأثير هذه النقاط عليه، فلا نستطيع أن نقول بأن هذه الصفات ترمز لدى السارد إلى شيء

---

(٢٨) حمزة بوقري، سقيفة الصفا، ص١٦١.

ما، كما أنها لا تمثل جانباً كبيراً في المكان، لكنها تكشف عن مقدار ما تركته هذه البقع في نفس السارد من ظلمة ربما انعكس على رؤيته للحياة كلها، وهو ما بدا في الموقف اليائس من الحياة، ومن فهم الحكاية التي تقصها أمه عليه.

يأتي بعد ذلك تصنيف المكان من حيث السعة والضيق هذه الدلالة بالرغم من قيمة انعكاسها على نفس المتلقي لكن الشخصية في إحساسها بالمكان لا تستجيب لهذه الصفة بالرغم من استعمالها أحيانا خاصة في الحديث عن الطرق، فكلمة ضيق غالباً ما تكون لوصف الدهليز أو الشارع، ولم ترد لوصف منزل، أو غرفة أو فصل دراسي، وهو ما يعني أنها تخرج عن أن تكون أداة لكشف تأثيرات المكان على الساكن لتصبح موقفا من شيء، خارج عن الذات والنفس. ومن هنا نجد الناص يتناولها بوصفها جانباً يمكن إدراك كنهه أو تجاوزه، ففي حديثه عن سفيان يبين كيف أنه أخرجه من دائرة وهم المكان المسيطر عليه إلى علم أكبر بحقيقة المكان الآخر، أخرجه من دائرة الضيق إلى سعة المعرفة: "ألم يكن هو الذي نبهني إلى أن الدنيا ليست هي ذلك الشارع الضيق الذي أسير فيه، والمحصور بين جبلي أبي قبيس والسبع بنات. مع ما يتفرع عنه من أزقة أكثر ضيقاً، تنتهي كلها إما يميناً أو شمالاً مصطدمة بهذا الجبل أو ذاك"(٢٩).

ومن هنا ندرك سبب عدم العناية بقضية السعة والضيق في النص؛ لأن الشخصية لم ترتبط بمكان محدد، بمقدار ما كانت منفتحة على جميع الأمكنة، والمفهومات، وهو ما يعني في الوقت ذاته ضعف تأثير المكان على الشخصية من الناحية النفسية، وعدم اندماجها فيه، وكأن الشخصية ضيف أو سائح يعيش في المكان دون أن يتأثر بما يتسم به من ضيق أو سعة على وجدانه.

---

(٢٩) المصدر السابق، ص٢٧.

على أن القول بعدم العناية المطلقة بالسعة والضيق ليس دقيقاً، فالمقطع يحمل في داخله عناية بالسعة والضيق، والسؤال يأتي ليصوغ الفرق بين السعة والضيق، وبين الانفتاح والانغلاق، والحركة والسكون والعتمة والضوء، فنحن نجد في النص ألفاظا أخرى تتوسط في دلالتها وإيحائها بين الدلالة على السعة والضيق والدلالة على الضوء والعتمة، من مثل المقاسات التي يقدمها للغرف أربعة أمتار في أربعة أمتار، والمستراح الصغير، والفسحة الصغيرة، والفسحة الداخلية التي تربط بين المقعد والديوان، هذه المفردات، كما تتوسط بين السعة والضيق، لا يظهر منها الدلالة على الضيق أو على السعة، ولا على الضوء أو العتمة، فهي مستراح أو فسحة تدل على السعة لكنها في الوقت عينه صغيرة توحي بدلالة الضيق فهي أربعة أمتار في أربعة أمتار، ومثلها الفسحة التي تربط بين المقعد والديوان دون الإشارة إلى وجود أي طريق ضوء يخفف ظلمة الغرف المتداخلة، والجدران المتتالية، وهي في الوقت ذاته فسحة تزيد من حجم الفضاء وقد تخفف من حدة تتابع الجدران والغرف وضيق الفضاء.

وتتخذ هذه الأمكنة فيما بينها مواقع جديدة حيث تأتي المدرسة في المحل الأول، فهي النقطة التي يتمحور حولها النص، ثم يأتي المنزل، سواء كان منزل الشخصية أو المنازل الأخرى، ثم يأتي المسجد، الذي يطلق عليه أحيانا الحرم، أو يترك دون تحديد.

تمتد هذه المدرسة حتى تصل المسجد الحرام (باب أم هانئ) حيث يقوم بعض مدرسيها بالتدريس هناك، وإقامة حلقات تعليم أخرى، ويقوم بعض طلابها بمواصلة التعلم هناك، وتمتد أحيانا للمنزل، فيتحول المنزل نفسه إلى مدرسة أخرى تساند المدرسة الأولى من جهة، أو يقدم فيها مالا يمكن أن يدرس في المدرسة من جهة أخرى. كما يمتد المسجد أيضاً إلى المنزل حيث يقوم الشيوخ باصطفاء بعض طلابه، ودعوتهم إلى منزله لقراءة بعض الكتب التي يرون أنها لا تصلح للمسجد أو المدرسة.

ويأتي الشارع مكاناً مختلفاً عن هذه الأمكنة، تقام فيه الأسواق، والعروض الاجتماعية، والقراءات الحرة، واللقاءات بين الأصدقاء، والفرقاء أيضاً، ومن هنا فالشارع/ البرحة فضاءات ذات وظيفة مختلفة في النص عن الأماكن الثلاثة، إنها الجانب غير الرسمي، أو المنظم، أو هي المكان الذي يعرض فيه الجانب الإنساني من المكان.

وبالرغم من أن هذه الأمكنة في أساس وظيفتها تربط بين الأمكنة المختلفة، "فالشارع يدخل... ضمن رؤية نسقية منظمة للفضاء المديني برمته"(٣٠)، وهي أداة ربط، فإنها في النص لا تأتي كذلك، ولا تبدو بصفتها أداة للربط بين الأماكن الثلاثة الأخرى، فنحن لا ندرك أين تقع المدرسة، والمسجد، والمنزل من الشوارع والبرحات، بينما تصبح أداة لتجميع الناس، ولقائهم، ومحاوراتهم، وبيعهم، وشرائهم أكثر مما هو وظيفة الأماكن الأخرى، وهذا يعني أنها حين تتخلف عن وظيفتها في الربط بين الأمكنة، وتبيين العلاقة المكانية بها، فإنها في النص تقوم بوظيفة الربط بين الحالّين في المكان، وهم الساكنون، الأمر الذي يعني مرة أخرى أنها تتخلف عن الربط المادي لتقوم بالربط المعنوي، وتكون مجالاً لإقامة الصلات. هذه الصلة بين الأركان الأربعة لا نجدها بين سائر الأمكنة في النص كالمقاهي بالرغم من وجودها في الواقع، فالمقاهي في مكة كانت مكاناً يجتمع فيه المثقفون والأدباء يقرؤون فيها الكتب، ويتحاورون في مسائل الثقافة والفكر. والصلة بين الأسواق، والمسجد والمدرسة معدومة، مبنية على الصلة بين المنزل بالأسواق، أو البرحات، ولا تتجاوزها.

٥ - الأمكنة الهامشية:

وإلى جانب هذه الأمكنة المركزية في النص هناك أمكنة أخرى جاءت فضاء لحدث واحد أو حدثين مما قلل من قيمتها في بناء النص، من مثل منى، وعرفات، و طريق المدينة، والمدينة، والجبال:

---

(٣٠) هنري ميتران، المكان والمعنى، مرجع سابق، ص١٤١.

جبل أبي قبيس، وجبل خندمة، والمقاهي، والمقابر، ودكة السقائين. وهي كلها جاءت فضاء لبعض الأحداث في النص، ولكنها لم تنهض بجزء كبير منه، مما حصرها في إطار الهامش، ولا يمثل الحدث الذي دار فيها كبير قيمة في النص أو في حياة الشخصية، بمقدار ما يكشف عن جانب من المكان الكلي، وهذه الهامشية التي تبدو من خلال عدم ذكر قيمتها، وما تنهض به، تبدو أيضاً من خلال الدلالة التي تقدمها في النص، وكشف الجانب الكلي من المكان في النص، ولكنها لا تعود بحال إلى حجم المساحة التي تأخذها من المكان الواقعي، والذي لا نستطيع أن نتمكن من معرفته، أو افتراضه .

المكان من خلال عناصر الخطاب الروائي:

بالإضافة إلى ما سبق في تقديم المكان يعتمد النص عدداً من التقنيات في توظيفه للمكان، وتقديمها يسهم بصورة أو بأخرى في إعطاء فكرة عن المكان الروائي، وطريقة تكونه، هذه التقنيات الأربع جاءت على النحو الآتي:

١ - نعت المكان:

تمثل تقنية النعوت إحدى الأدوات التي استعملها النص ليميز الأمكنة، ويفرق بين بعضها البعض، فالطول، والضيق، والصغر، والعلو، والبعد كلها صفات توصف بها أمكنة دون أخرى، وقد حظيت عدد من الأمكنة بهذه الأسماء خاصة الشوارع والأزقة التي أهملت في الغالب من أسمائها، وهذا يعني أنه عمد إلى تصنيف هذه الأمكنة عن طريق تمايزها بالصفات المعطاة.

٢ - التعداد والتجاور:

الطريقة الثانية في التعامل مع الأمكنة، تتمثل في طريقة إيرادها، فعدد من الأمكنة تظهر عن طريق التجاور والتعداد، دون أن يكون لهذا الذكر في النص كبير فائدة، فهي لا تشارك في بناء النص،

وسيرورته، ولم يكن ذكرها ليخدم الحكاية بوصفها ظرفاً لحدث تم فيها، ومن هنا جاءت قيمتها للدلالة على حضورها، أو لمجرد ذكرها، وقد كان إيراد هذه الأمكنة عن طريق الذكر العرضي في سياق تعداد بعض الأمكنة التي رآها، كمحبس الجن، ريع اللصوص، طلعة أبي لهب، أو أسماء حارات مكة، الشامية، والمسفلة، وأجياد، وهذا التعداد، والتجاور في الذكر يبين القيمة التي تصنف فيها هذه الأشياء، وتبدو في ذهنه، فهي في ذهنه تتجاور مع هذه الأماكن بغض النظر عن تجاورها في المكان الواقعي.

٣ - تسمية المكان:

التقنية الثالثة في التعامل مع الأمكنة في النص، فهي تقنية الاعتماد على التسمية، أو إهمالها، فالنص يطلق الأسماء على بعض الأماكن، كالأحياء/الحارات: الشامية، المسفلة، والجبال، وبعض الأزقة مكان وقوع بعض الأحداث، بينما يهمل أماكن أخرى كالمدارس، والشوارع، والأزقة، فإذا تحدث عن هذه الأماكن، فهو في الغالب يتجاهل التسمية، "اندفعت خلال الممر الطويل إلى الشارع"، "وفي الطريق إلى بيتنا"، "وفي الطريق إلى البيت"(٣١)، ويستعيض عنها بهذه الألفاظ العامة التي تزيد من غموض المشهد، مما يعني أنه يسعى للإبهام، وعدم الإشارة إلى ملامح المكان، وقد جعلت هذه التقنية الأمكنة مقسمة قسمين: أمكنة مسماة، وأخرى مهملة من التسمية، وهو ما يعني أن وراء هذا التخصيص بالتسمية، والخص بالإهمال دلالات محددة، ومن هنا فإنه حين يهمل تسمية الأمكنة، والشوارع، فهو يعطي بعضها أسماء، فمقابر المعلاة تتقسم كما يذكر النص إلى أكثر من موضع، فموضع للأغنياء، ومواضع أخرى لغيرهم، موضع الأغنياء هو شعبة النور، بينما الآخرون لا اسم لهم.

---

(٣١) حمزة بوقري، سقيفة الصفا، ص ٩، ١٩١، ٢١٠

٤ - صيغة المكان:

التقنية الرابعة التي تعامل معها الكاتب في تقديم المكان، فهي طريقة التعبير عن المكان، وتقديمه له، فإذا أطلق كلمة المنزل، فهو في الغالب يقصد منزله، ولا يستخدم (منزلنا) إلا حين يريد أن يقارنه بمنزل آخر، فـ "العشاء في بيت مولانا دسم... بخلاف العشاء في بيتنا"، وليس هناك فرق بين كلمة منزل، أو بيت، أو دار فهو يستعمل الألفاظ الثلاثة في معنى واحد، أما ما سوى هذه فهو يستخدم كلمة منزل مضافة إلى الضمير: منزله، منزل الأستاذ، منزل مولانا، والشوارع تذكر بتجرد وكأنها شيء مستقل عن الجزء الذي تتصل به، وغالبا ما تكون معرفة بأل: "اندفعت خلال الممر الطويل (الدهليز)... إلى الشارع" "ومن ثم خرج إلى الشارع ووقف هناك"(٣٢)، دون أن يسعى لتحديد ملامح هذه الشوارع، ومثله أيضاً في حديثه عن المدرسة، والمسجد، فهو في الغالب لا يورد هذه الأمكنة إلا معرفة بأل، مما عزز حضورها في النص بوصفها مكونات نصية، لها حضورها المستقل عن سائر الأمكنة، وليس بوصفها ظرفاً محدداً لحدث ما، ومن هنا يمكن أن نقول بأن المسجد يدخل في إطار المسكوت عنه بحيث عندما نذكره فنحن نذكر كل الأشياء المرتبطة به، وهنا تحول إلى عالم متكامل له دلالته المستقلة والمتكاملة الحاضرة في المكان، وهذا ينطبق على الشارع، والمنزل، والمدرسة بوصفها أداة ذات ملامح محددة، يكفي النطق باسمها لندرك ما يقصد بها بالرغم من الاختلاف بين الشوارع المتعددة التي يتحدث عنها، فالأمر الأكيد أن الشارع الذي عند المدرسة ليس هو الشارع الذي قرب البيت، وكذلك المساجد التي يشير إليها في كل مرة بـ(المسجد)، وهو ما يعني تساوي هذه الأشياء بالانطلاق من الوظيفة التي تنهض بها.

---

(٣٢) المصدر السابق، ص ٩، ٢٣، ٢١٢.

المكان من خلال عناصر البناء الروائي:

١ - المكان والحدث الروائي:

تمثل العلاقة بين المكان والحدث علاقة تلازمية بوصف المكان هو الظرف الذي يتم فيه الحدث، والحدث الروائي من أهم العناصر التي يقوم عليها العمل الروائي بوجه عام، ومن هنا فالدراسة تتناول كيف قدم المكان الحدث، وهل كان مناسباً للحدث الذي تم فيه، ثم ما مدى سطوة المكان على الحدث أو العكس في النص الروائي. هل مزق الحدث الروائي لصالح المكان، أو أن المكان جاء لصالح الحدث؟ الإجابة على هذه الأسئلة تبدأ من الحديث عن المكان أو عن النص الروائي نفسه.

يدور حدث الرواية الكلي على تتبع مراحل نشأة حياة الشخصية الرئيسة وتطورها من الطفولة إلى الزواج، وفي خضم هذه الرحلة تمر الشخصية الرئيسة ومن ورائها السارد بعدد من التجارب الحياتية اليومية التي تؤدي إلى عدد من التحولات وتدخل في نطاق حدث النص الروائي.

المرحلة	الفصول
الطفولة	٢، ٣، ٥، ٧
المراهقة	١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨
النضج	٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤

وبناء على هذا يمكن تقسيم الحدث الروائي في النص بناء على تقسيم الحياة الوارد فيه، من الطفولة إلى المراهقة إلى النضج، والنظر إلى كل مرحلة من هذه المراحل على حدة، وتصنيف الأحداث الجزئية على هذه المراحل الثلاثة كما جاءت في النص. والحكم على

الأجزاء الأخرى التي لا تنتمي إلى هذه المنظومة بالترهل وعدم الارتباط بالحدث، لكن هذه المراحل لا تمثل وحدة بنائية متكاملة، ومن هنا لا نقول بأن هناك تحولا في بناء الحكاية أو تطوراً فيه بحيث أصبح أمامنا حدث درامي بمفهوم أرسطو الذي يعد فعل الخطأ القانوني أو القدري بدايته، أو التعاقب والتنوع.

وحين نقف عند هذه المراحل نجد أن كل وحدة منها تختص بعدد من الأفعال تتناسب مع المرحلة التي تنتسب إليها:

١ - مرحلة الطفولة: الدراسة واللعب.

٢ - مرحلة المراهقة: الدراسة وتحقيق الذات.

٣ - مرحلة النضج: العمل و الزواج وعلاقات اجتماعية.

ومعظم الأحداث الجزئية تنتسب إلى هذه الأجزاء، وما يمكن أن يكون خارجاً عن هذا الإطار من مثل رحلة الحج، أو رحلة المدينة أو الخروج مع سفيان للتجول في المكان الكلي لا يسهم في تنامي الحدث الروائي أو تطوره، فالحدث في هذا النص ليس متنامياً، إنما يتكون من بؤر حدثية، هذه البؤر تتكون من حكايات صغيرة، لا تتسلسل فيما بينها، فحكاية تدريس (جميل) لا ترتبط بحكاية عمله في المدرسة، ومثلها حكاية حبه جميلة التي لا ترتبط بتدريسه جميل، وإن كانت قد أدت إلى تواصلهما. ولذا ونحن في متابعة أجزاء الحدث لا نجد المقطع الذي يمثل نقطة تطور الحدث أو انعطافة مغايرة عما قبلها.

وبناء على هذا نجد أن العلاقة بين الحدث الروائي وفصول النص لا تلتزم منهجاً واحدا، ولا تسير في خط واحد أيضا وهو ما سيبينه الجدول الآتي الذي نستعرض فيه علاقة الفصول بالمراحل التي سارت فيها الرواية:

وهنا نجد أن الفصول التي ترتبط أحداثها في بناء حبكة النص تمثل ٢١ فصلاً من أصل ٣٤ فصلاً، إضافة إلى أن هذه الأجزاء التي

وردت في واحد وعشرين فصلاً لا تترابط فيما بينها لتمثل حلقة في سلسلة بناء حدث النص الكلي وهو ما ستبينه مقارنة هذه الأجزاء بالحدث الأصلي، وتتبع تطور حياة الشخصية الرئيسة الذي بنيت عليها الرواية، وذلك في الحديث عن مقارنة العناصر بعضها ببعض بعد تناول المكان والشخصية.

ولعل أبرز ما يلفت النظر في حدث النص أنه يبتدئ بالموت، وينتهي بالموت، يبتدئ بموت عمه، وينتهي بموت والدته، والموت نهاية، ومكان يصل إليه الإنسان في مسيرة حياته، ومن هنا فالنص مطوق بالمكان/ النهاية المحتومة، وما بين الموتتين ظل النص يسعى لجمع شتات الأحداث، على أن هاتين الموتتين قد قامتا بوظيفة كبيرة بالنسبة للشخصية ومن ثم للنص، فقد أدت إلى بروز وعي الشخصية الأولى بوعيها بحركة الأشياء من حولها، والثاني بوعيها حقيقة الأشياء ومعناها. وهنا أصبح الموت من أهم النقاط التي يلتقي فيها المكان الحدث.

ومن ثم فإن الحدث في النص لا يدور حول حكاية معينة لها بداية ونهاية، تصب جميع الأحداث الجزئية فيها بمقدار ما يدور حول مسيرة حياة يومية فيها تفصيلات عدة قد لا تؤدي إلى وحدة متكاملة، ولا تترابط فيما بينها إلا من خلال وحدة الفاعل الشخصية الرئيسة، وهو ما يعني أن الحدث قد استجاب لسيطرة المكان عليه. وأصبح تتابعه وتطوره أداة لتطوير المكان وكشف أجزائه المختلفة، وهو ما يعين أن الحدث في النص جاء أداة للمكان ووسيلة له.

٢ - المكان والشخصية:

العلاقة بين الشخصية والمكان علاقة تلازمية بالنظر إلى أن الشخصية التي تعيش في المكان، هي التي تشكله/ تبنيه، فالبناء والشوارع والأرصفة هي من صنع الإنسان الذي يعيش في المكان، ومن هنا فإن الشخصية قد تكون أداة فاعلة من خلال ما تقوم به في

صنع المكان سواء على الصعيد الخاص؛ أي: المكان نفسه أو العام من حيث فعلها الذي يعود على صورة المكان في النهاية، كما أن المكان يؤثر في الشخصية بناء على المقولة المشهورة: "قل لي: أين تسكن أقل لك: من أنت"، والأماكن الفسيحة والضيقة والمظلمة والمنيرة كلها أماكن تؤثر على الساكنين فيها.

ومن هنا فإن العلاقة بين الإنسان والمكان تتم على أكثر من مستوى، مستوى تأثير الإنسان في المكان، ومستوى تأثير المكان في الإنسان، وتأثير الإنسان في المكان يأتي عن طريق التأثير المباشر من خلال عمليات الهدم والبناء المتتابعة، و ما يقوم به من سلوك وأعمال تعود في صورتها النهائية على صورة المكان الكلية.

وفي مقابل ذلك يكون تأثير المكان في الإنسان؛ فالذي يعيش في الصحراء ليس كالذي يعيش في الساحل متاخماً للبحر، ومن يعيش في البلاد الحارة ليس كمن يعيش في البلاد الباردة، فهو يكتسب من المكان والظروف التي تحيط به صفاته النفسية، وربما الجسمية أحيانا، والمكان بصورته النهائية يعطي فكرة عن الساكن فيه إيجابية أو سلبية وعن ثقافته وذوقه بناء على المقولة السابقة.

وتتحقق هذا العلاقة بين المكان والإنسان بصورة كبيرة فيما يتعلق بمكة فضاء النص الروائي في مقولة أحمد السباعي وهو يصف مكة والساكنين فيها حيث يؤكد علاقة التأثر والتأثير هذه بصورة كبيرة، فيقول: "مجموعة الأجناس والجاليات أثرت في تكوين طابع مكة حتى إذا استقام ذلك الطابع استطاع أن يدمغ جميع القاطنين والمجاورين بدمغة واحدة يبدو أثرها في أكثر تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم وطريقة حياتهم"(٣٣).

---

(٣٣) تاريخ مكة، الطبعة الخامسة، (المملكة العربية لسعودية، وزارة المعارف، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص٥٧١.

وحين نتأمل النص الذي بين أيدينا نجد أن علاقة التأثير المتبادلة واضحة فيه، ويكفي شاهد على هذا أن المكان بصورته النهائية هو من صنع الإنسان، فالأبنية، وبوابات الحماية، والطرق وإنشاء المدرسة وإرسال الأطفال إليها هي من عمل الشخصية في النص، وقد جاء الوعي بهذا الموقع واضحاً من لدن الشخصية حين يشير إلى ما نتج عن النزاعات حول السوق؛ مما أدى إلى الاحتكار وزوال نعمة التنافس في الحارة كما يسميها، وحين يشير إلى طبيعة العلاقة بين الناس الساكنين في أجزاء مكة التي لا تختلف عن العلاقة في القديم بين بطون مكة، وكأنها علاقة يفرضها المكان على الساكنين وطبيعته التي تقضي بالتنافس على دائرة ضيقة ومحددة هي الأقرب إلى المسجد الحرام سبب الوجود في المنطقة، وقد أدى هذا السبب إلى تشكيل الأمكنة حوله فصورة المنزل الذي قدمته الشخصية والذي لا يختلف عن سائر المنازل هناك كما يقول، توحي بمقدار تأثير النقطة التي تلتف عليها المدينة حيث يأخذ كل منزل نقطة صغيرة على الشارع المتجه إلى النقطة لا تتجاوز عشرة أمتار بينما تتسع المساحة في الداخل لتصل ثلاثة أضعاف ذلك، هذا التأثير المتبادل بين الشخصية ونقطة التمركز تكشف نمط العلاقة بين الشخصية والمكان من حيث التأثر والتأثير.

لكن تأثير المكان على الشخصية في النص يبدو أظهر من تأثير الشخصية، فطبيعة المكان المحاصر بالجبال دفعت الشخصيات إلى إنشاء المنازل في أطراف الجبال، ودفعهم إلى اختيار الامتداد العلوي بدلا من الأفقي، كما أنه حدد أنماط الأعمال التي يمتهنها أصحاب الحرف في مكة، فمعظمهم يعملون بالتجارة، ويعملون أيام المواسم بخدمة الحجيج، وهو ما هيأه لهم المكان الذي يعيشون فيه، ولأنهم يعيشون في مهوى الأفئدة، والناس يقصدونهم من كل (فج عميق)، فإن هذا أعطاهم الشعور بالاستغناء عن كل أحد، وتحول الناس في

الأمكنة الأخرى إلى الهامش في مقابل المركز الذي يمثلونه، يقول السارد في وصف هذه الحالة في معرض حديثه عن اللغة الإنجليزية: "فعدد الذين يعرفون في حيِّنا أن هناك لغة في الدنيا اسمها الإنجليزية ربما كان صفراً. وهذا الصفر من العدد لا ينظر على أنها شيء يسعى إليه، فهي أولاً لغة النصارى، وهي ثانيا لغة لا يستفاد منها البتة، ولو كانت مفيدة لسعى إليها أهل مكة"(٣٤).

وقد انعكس هذا الإحساس بالمركز حيال المكان لدى الشخصية إلى نظرته إلى الأمكنة الأخرى خارج المكان الأصلي، وموقعها منه، فبدت العلاقة قائمة؛ لأن مكة المكان المركز والأمكنة الأخرى ذات موقع فرعي بالنسبة له: المدينة مكان الزيارة والفسحة كما في زيارة الشخصية إليها حينما أرادت أمه أن تزوره إياها، والطائف مكان قضاء مرحلة الصيف اللاهبة يخرج أهل مكة من بين الصخور للاستمتاع بالفضاء المفتوح، ولندن يأخذ موقع الضد من المكان المركز: مكة بلد الإسلام ولد فيها الإسلام، ولندن بلد النصارى المضادة للمسلمين، والمكان الخارجي الذي يأخذ موقعاً قلقاً بين التبعية والتفوق هو مصر، ففي حين يأتي المصريون حاجين بيت الله الحرام يوفون النذور، ويقضون التفث تظهر مصر بصفتها زمناً متقدماً على مكة، يظهر ذلك في حكاية شيخ العرب الذي ذهب من الحجاز إلى مصر فتوجس خيفة من مشروب الكوكاكولا، ولم يهدأ باله حتى أمر له بفنجان قهوة(٣٥).

لكن التأثير الأكبر بين الشخصية والمكان يظهر من خلال صياغة كل واحد منهما للآخر، فالشخصية الروائية كما هو نمط السرد الذي جاءت عليه في النص تلتحم بالسارد، بمعنى أن النص يختار طريقة السرد التي تجعل السارد إحدى شخصيات الرواية، ومن هنا

---

(٣٤) حمزة بوقري، سقيفة الصفا، ص١٤٧.

(٣٥) انظر: المصدر نفسه، ص١٠٠.

فإن الذي يقدم المكان ويصوغه هو الشخصية الروائية الرئيسة في النص، فالمكان يظهر من خلاله، وخلال رحلاته وأعماله، ومن خلال طريقة تقديم المكان والحيز الذي يأخذه من النص، وقد انعكست هذه التقنية على النص، فمجيء السارد إحدى شخصيات النص، وفي سن الطفولة مكنه من تجاوز الحدود، وتضييق دائرة المحرم، يدخل عوالم لا تجوز لغيره، سواء كانت عوالم النساء التي لم تحرم عليه بوصفه لم يبلغ الحلم، كما في حكايات أمه مع الخالة أسماء، أو عوالم الخاصة التي يستهين الناس بسترها عنه بوصفه طفلاً صغيراً كالحكايات التي يتناقلها السقاة في الدكة، والأمكنة التي يدخلها مع سفيان ولا يؤبه لحضوره فيها نظراً لصغر سنه.

والسارد/ الشخصية يستخدم في تقديم النص ضمير المفرد وضمير الجماعة، وبما أن السارد هنا هو الشخصية فإن هذا يعني أن الحكاية التي يسرد تفاصيلها ليست خاصة بشخصية واحدة وإنما تعبر عن ضمير الجماعة التي ينتمي إليها، والتي تنتمي إلى المكان، وهو ما يعني في الوقت ذاته تعمد السارد عرض جوانب محددة من المكان لا تتصل به مباشرة بمقدار ما تنتمي إلى الجماعة التي ينتمي إليها، وهو ما يعني أن هذه الجوانب لا يفرضها القص الحكائي بمقدار ما تفرضها وجهة نظر السارد، تظهر هذه الجوانب في الألقاب التي يأخذها الطلاب في المدرسة، أو المعارك التي تقع في الحارة، وقد نص السارد أنه حرم منها، وحين نوازن بين فصول الرواية التي تتصل بالسارد، والفصول التي تأتي صلتها بها ضعيفة نجد أنها تأخذ مقدار النصف من مجمل عدد الفصول، وأن هناك جوانب لا تتصل بالسارد أو برحلاته الأمر الذي يعني أن اختيار الجوانب المقدمة هو من صلب صياغة النص وتقديم المكان.

هذا من جهة صياغة الإنسان للمكان أما من جهة صياغة المكان للإنسان فيتمثل فيما سبقت الإشارة إليه من تقديم عرض الأثاث،

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، السنة الثانية والثلاثون
الدارة

والمنزل لصورة الشخصية الرئيسة ومستواه الاجتماعي، حيث الغرف العارية من الأثاث، وحيث الزير بالرغم من قلة قيمته يمثل أهم ما في المنزل، ومثله حديث السارد عن عدم تمكنه من القراءة في المنزل لعدم وجود النور الكافي الأمر الذي اضطره إلى الوقوف في الشارع الساعات الطوال للقراءة تحت ضوء النور العام أو في المسجد الحرام، وهي كلها تكشف حالة الشخصية الاجتماعية.

ومثلما تكشف حالته الاجتماعية فهي تكشف التحول الذي أصاب أسرته فالملابس التي بدأت تضيق عليهم، والمصباح الذي اشترته أمه لأجل أن يستغني عن الوقوف في الشارع، وصندوق الغناء الذي يوحي بشيء من الترف تعيشه الشخصية، وآلة الآيس كريم والخدم الذين تستعين بهم أمه للقيام بشؤون المنزل كلها إشارات من المكان إلى حدث مهم في حياة الشخصية، وإلى ما يمكن أن نسميه صياغة الشخصية من جديد.

والحديث عن ملابس الشخصية والتحول الذي أصابها من خلالها من مرحلة الصبا إلى مرحلة الكهولة عن طريق الانتقال من موقع طالب في المدرسة إلى مدرس يلبس الجبة والعمامة، بدلاً من الثوب يكشف مقدار التداخل بين صياغة المكان للإنسان وصياغة الإنسان للمكان، فالمكان صاغ الإنسان من خلال نقله من الصبا إلى الكهولة والإنسان صاغ المكان من تقديمه رأيه بهذا الكائن الذي يعيش في المكان ويتأثر به، ويستجيب لظروفه من خلال البيت الذي ألقاه أحد زملائه القدامى الذين ما زالوا يزحفون في فصول الدرس دون أن يقدموا تطورا (إذا لبس العمامة كان قرداً، وخنزيراً إذا خلع العمامة).

كما يبدو في النص تأثير المكان على حالة الشخصية النفسية، كما سبقت الإشارة في الحديث عن المكان المنفتح والمنغلق، وتبدو هذه التأثيرات في التركيز على الظلمة في تصوير المشاهد، الدهليز المظلم، وسقيفة الصفا المظلمة التي جاءت عنوان النص، والغرفة

المظلمة، وظلمة القبر التي عاشت في نفسه منذ طفولته أو الصفحات الأولى في النص(٣٦). هذه البؤر المظلمة تتحول إلى نكتة سوداء بعيدة الغور في وجدانه، تتمثل في موقفه من المكان، القائم على الشعور بالغربة تجاه المكان الذي يعيش فيه، وعدم التداخل معه؛ مما جعله ينتقل بين أجزائه كما ينتقل السائح بعدسته يصور المكان من الخارج دون أن ينتمي إليه أو أن يشعر أنه يعبر عنه بالرغم من تناثره في تكوينه وأدق أجزائه. هذه النظرة السوداوية للمكان ظلت تلازمه حتى نضجت ملامحها في فصول النص الأخيرة، وفي سلوك الشخصية حين تهجر منزلها القديم: منزل والديه، ويتخذ بيت صديقه منزلاً بعد أن أغلق على نفسه الأبواب، وأقام دونه الحجب، فأصبح لا يرى الناس إلا لماماً: "كنت أسير بين جنبات المدرسة وأنا شبه نائم، ولو طلب إلي أن أكتب يومها موضوعاً في وصف شعوري لقدمت الإجابة بيضاء... ومع ذلك كنت أدرس وأناقش الطلبة وأصحح كراساتهم، ولكن ما يكاد ذلك ينتهي حتى أدخل في حجر نفسي الحصين وألوذ بالصمت، ولم يضايقني أحد بالتطفل على ما يدور بداخلي"(٣٧).

هذه البؤر المظلمة تتحول إلى نكتة سوداء بعيدة الغور في وجدانه

ويتمم هذه الرؤية ويبينها توافق صورة الحياة لديه بالحكايات التي تقصها عليه أمه قبل نومه، والتي تتمثل بثلاث ليال: يولد البطل في الليلة الأولى، ويلتقي أميرته أو فتاة أحلامه في الليلة الثانية ويتزوجها، ثم يدهمهم هادم اللذات في الليلة الثالثة، وبالرغم من أن هذه السيرة هي قصة الحياة كلها، وأن العلاقة بين الموت والحياة ليست قريبا، إذ يشكل كل واحد منهما ليلة خاصة مستقلة عن الأخرى أو مرحلة مختلفة عن الأخرى، فإن السارد قد انحصر انتباهه في أن

---

(٣٦) انظر: المصدر السابق، ص١١.

(٣٧) المصدر السابق، ص٢٥٠.

الليلة الثالثة تتبع الثانية، وبهذا يتحول الزواج من وسيلة للسكن والاطمئنان ورمز للنتاج والاستمرار إلى مرحلة من مراحل النهاية والموت. هل هناك رؤية سوداوية للحياة أكثر من هذه؟ وهو ما جعله يتوقف عن الزواج ظنا منه أن تأخير الزواج/ الليلة الثانية قد يساعده في تأخير الليلة الثالثة بناء على تشاكل الحياة مع الحكاية التي يسمعها من والدته.

والبحث في العلاقة بين الشخصية والمكان يهدينا إلى نموذج التقى فيه العنصران، فمن خلال المقارنة بينهما نجد أن الأم تأخذ في أكثر من موضع تأتي موازية للمكان سواء كان هذا المكان المنزل الصغير أو المكان الكلي، فالسارد يذكر في أول النص أنه كان ينام في دكة صغيرة ملقاة على سطح صغير ثم انتقل إلى دكة رئيسة في المنزل، هذا الانتقال صاحبه انتقال من الهامش بالنسبة لأمه بعد وفاة عمه إلى المركز بوصفه الشخص الوحيد الذي ينال عنايتها، وهو الأمل الوحيد الباقي لها من الذرية بخلاف ما كانت عليه في حياة عمه حين تأمل في أولاد كثير بناء على نبوءة المرأة التي تنبأت بأن "سيكون لها عدد من الأبناء"(٣٨)، وهو ما يدل عليه تعلقها بهذه النبوءة حتى بعد وفاة زوجها حين يذكر السارد أنها كانت تنظر إليه "نظرة غامضة تلتها بقولها: الذي في الغيب أحلى"(٣٩)، تكتمل صورة هذه الحالة في آخر النص حين يهجر السارد منزله، وينتقل إلى منزل العم عمر بعد وفاة أمه وكأن هذا إشارة إلى وفاة المنزل في داخله وانتهاء دوره، وهو ما يعني بصورة أخرى أن أمه كانت بمثابة المأوى والسكن، وهو ما كانت تفعله في حياتها وطوال حياته، الأمر الذي يوصل إلى تلاحم وظيفة الأم والمنزل في الحياة وفي نفس السارد.

ونجد الموازنة بين الأم والمكان الكلي في موضع آخر حين يذكر في عودته من المقبرة خلال سقيفة الصفا أنه عاد إلى رحم أمه، فرحم

---

(٣٨) المصدر السابق، ص٣٥.

(٣٩) المصدر السابق.

أمه هي سقيفة الصفا وأمه هي مكة، وهذه العودة إلى مكة والأم في الوقت نفسه قائم بناء على أن الأرض/ الوطن كالأم يحتضن الإنسان ويزيل عنه غربته، وبعد فقدانه الأم الحقيقية عاد إلى أمه الأرض/ الوطن التي تستره.

وحين نتتبع أجزاء الحدث أو الشخصية في النص نجدها لا تتماسك لتقدم صورة متكاملة محددة عن عنصر واحد، فالحدث كما سبقت الإشارة لا يترابط فيما بينه؛ ليشكل جزءاً واحداً مكتملاً بالرغم من اشتمال النص على أحداث عدة كانت الشخصية تقوم بها، وكان المكان يحويها، لكنها لا تترابط؛ لتصبح ذات بداية ونهاية، ومثل هذا الكلام يمكن أن يقال عن الشخصية بالرغم من الاختلاف في الحالين فالشخصية أخذت جوانب كبيرة من النص، وقدمت الأشياء من خلالها وعن طريقها، لكن هذه الطريقة أيضا لا يمكن أن تعد رواية قائمة على شخصية أو تسعى لتقديمها، وفي الجدول الآتي عرض فصول النص، ومقارنة بين عناصره الثلاثة تبين من خلالها مقدار ظهور كل عنصر في النص:

م	ثيمة الفصل	مكان	اتصال الحدث	حضور الشخصية
١	عدم شعوره بوفاة أبيه، وموقف عمه منه، وحديثه عن موقع بيته من مدرسته	المنزل، المدرسة	متوقف	وطيدة
٢	وفاة عمه، وموقفه منها، والأولاد أيضاً	المنزل، المقبرة، الشارع، المدرسة	بداية	وطيدة
٣	كتاب البنات، كتاب الأولاد، وموقعه في هذه المدارس، وضوح الرؤية	كتاب البنات، كتاب الأولاد، المدرسة	تكميل	وطيدة

تابع:

٤	الأسماء التي كان يأخذها الطلاب في المدرسة ومناوشات الأولاد هناك	المدرسة، غير محدد	متوقف	لا صلة
٥	الخروج مع سفيان، للجولة، وكشف بعض جوانب المكان	الشارع، مواقع عدة	منفصلة	ضعيفة
٦	أزواج أمه، وحكايتها معهم، وموقفه من كل واحد	المنزل، غير محدد	متوقف	ضعيفة
٧	رحلة الزيارة إلى المدينة مع والدته	المنزل، الطريق إلى المدينة	منفصلة	لا صلة
٨	حكاية رقص الخالة على رقص الشهداء، والوصول إلى المدينة	الطريق إلى المدينة	متوقف	لا صلة
٩	حرفة السقاء، وجانب من دكة السقائين	دكة السقائين، لا مكان	متوقف	لا صلة
١٠	خالة والحديث عن الكلاب	لا مكان	متوقف	لا صلة
١١	المدرسة والطلاب، والنزاعات والاختلافات	المدرسة	متوقف	ضعيفة
١٢	المدرسة، والطلاب وما يدرس فيها	المدرسة	متوقف	ضعيفة
١٣	التحول في حياته، والاهتمام العلمي والدراسة في الحرم	المدرسة	تطور	وطيدة
١٤	الاهتمام بالجنائز، وما صاحب مرحلة البلوغ	المقبرة، الحلقة	تكميل	وطيدة
١٥	ذهابه مع سفيان إلى جريمة قتل، واطلاعه على ذلك	الشارع، جبل السبع بنات	منفصلة	لا صلة
١٦	الارتباط مع الأستاذ حيث الدرس بالمنزل، والخروج في الليل	منزل الشيخ	تطور	وطيدة

تابع:

١٧	المعركة مع إسماعيل العسكر وسرقة سفيان الأحذية	المدرسة، الشارع	متوقف	لا صلة
١٨	الكتب في مكتب المدرسة ولقاؤه في الفرمسوني	المدرسة، الزقاق، منزل العم عمر	تكميل	وطيدة
١٩	المعتوهون وطرائق الناس في معاملتهم	الحارة	متوقف	لا صلة
٢٠	العقد النفسية، وإشارة إلى الطبقات الاجتماعية	الحارة	متوقف	لا صلة
٢١	التأليف، وتدريس جميل، ودراسة اللغة الإنجليزية	المنزل، منزل العم عمر	تطور	وطيدة
٢٢	المدير، وبداية الدراسة، وطريقة التعامل الجديد معه	المدرسة	تطور	وطيدة
٢٣	طريقة العيش في مكة، والمنازل في مكة، والحياة الاقتصادية	المنزل	متوقف	ضعيفة
٢٤	بداية التدريس، ومشاكله، والمعلمين والطلاب	المدرسة، منزل المدير	تكميل	وطيدة
٢٥	التغير الاجتماعي للشخصية، والأسرة معه، وفيه إشارة بتغير الجيل نفسه	المنزل	متوقف	لا صلة
٢٦	طرائق جديدة لتدريس جميل، وبداية تدريس جميلة، والحب الذي نشأ، وتصويره هذا الحب	منزل العم عمر	تطور	وطيدة
٢٧	جوانب من حياة الحارة، وصراعاتها، وأفراحها، وأخبار فتواتها	الحارة	متوقف	لا صلة

تابع:

٢٨	العشاء مع الشيخ، والزواج من أمينة	الحرم، منزل الشيخ	تكميل	وطيدة
٢٩	أيام الحج في مكة وحياة الناس فيه، وطرائق عمل الناس هناك	أماكن الحج	متوقف	لا صلة
٣٠	مرض أمه، والسعي لعلاجها في كل السبل، والطرق التي سعى من خلالها لعمل اللازم.	الطائف، المنزل	تطور	وطيدة
٣١	وفاة أمه، وحاله بعد الوفاة، ودخوله في حضن العم عمر	المقبرة، سقيفة الصفا، المنزل	تطور	وطيدة
٣٢	بداية شفائه من حالة الذهول	منزل العم عمر	تكميل	وطيدة
٣٣	عودته إلى المدرسة، واعتزاله، ثم سعي العم عمر لتزويجه ابنته، وانتقاله إلى العيش هناك، والبطل الذي يموت في الليلة الثالثة	منزل العم عمر	اكتمال	وطيدة
٣٤	تسمية الابن، والفنون الذي يعني الجنون	منزل العم عمر	منفصلة	وطيدة

الخاتمة:

ومن خلال هذه المقارنة بين عناصر البناء الفني للرواية المكان والحدث، والشخصية نجد أن الفصول التي جاء الحدث فيها متصلاً، ومتسلسلاً يمكن أن يكوّن قضية واحدة هي أربعة عشر فصلاً من أصل أربع وثلاثين فصلاً، وهو ما يعني تراجع مكانة الحدث في النص، وإذا أضفنا إلى أن هذه الفصول الأربعة عشر بتراتبها لا تمثل حكاية نامية متكاملة، بقدر ما تمثل قصة حياة سيرة، وهو ما يضعف جانب ظهور الحدث في النص. ومثل هذا القول يمكن أن يقال عن الشخصية في النص، فهي لا تظهر إلا في سبعة عشر فصلا من أصل أربعة وثلاثين فصلاً، ويتولى السارد قص أحداث لا تتصل بالشخصية بطل القصة، ولا يشارك في صنعها، بقدر ما تنتمي إلى المكان نفسه.

وإذا قارنا حال الحدث بالمكان نجد أن المكان صاحب الحضور الأكبر، فإذا تجاوزنا السبعة عشر فصلاً الخاصة بالوصف والتي تسعى لتقديم المكان بصورة كبيرة، فإننا سنجد مقولة جيرار جنت الواردة سابقًا أن السرد لا يمكن أن يأتي خالصاً من الوصف بمعنى أن الفصول الأخرى هي أيضاً أداة لتصوير المكان، وحين نوازن هذه الفصول بعضها ببعض نجدها تقدم صورة متكاملة لمكان محدد، تأتي حدوده الزمنية في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وحدوده الجغرافية في المسمى (مكة)، وتتقاسم هذه الفصول تقديم أجزاء المكان، فيتولى بعضها تقديم العادات الاجتماعية، وبعض الأعراف في الوفاة، والعزاء، والزواج، وطريقة العيش فيها، وعلاقة الناس بعضهم ببعض: (١، ٢، ٦، ٧، ٨، ١٠، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤)، ويتولى عدد آخر الحركة العلمية والثقافية: (٣، ٤، ١١، ١٢، ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٦)، ويتولى عدد آخر من الفصول أو المقاطع في النص تقديم صورة المكان الجغرافية،

ومكوناته: (١، ٥، ٩، ١١، ١٥، ٢٣، ٢٧، ٣١)، ويتولى عدد آخر تقديم الحياة الاقتصادية في المكان: (٩، ١٩، ٢٣، ٢٩).

وبالنظر إلى هذه العناصر التي سعت فصول النص تقديمها نجد الآتي:

١ - أن العناية بالمكان الظاهر تكاد تكون أقل المظاهر في الفصول بينما جاءت العناية الكبرى للجانب الاجتماعي.

٢ - أن هذه الفصول تمتلئ كلها بالمكان، وقد يقدم الفصل الواحد أكثر من جانب كما هو واضح من الاستعراض السابق، دون أن نجد فصلا واحدا لا يقدم شيئا عن المكان؛ وذلك بسبب حضوره الكبير في النص.

ووجود فصول في النص، وجوانب منه لا تتصل بالشخصية ولا بالحدث وإنما تتصل بالمكان يكشف سيطرة المكان في النص، ومجيئه بوصفه أصلاً مركزاً تدور حوله الرواية، ويفضي إلى القول بأن النص يمزق أبرز عناصر البناء الحدث والشخصية؛ ليحافظ على اكتمال المكان، وسلامة بنائه، ويحقق ما يمكن أن نسميه بسطوة المكان. هذه السطوة تتحقق في جانبين: الأول من خلال المكان الأصلي الواقعي الذي يحيل إليه النص، بصفته الأصل الذي قامت عليه الحركة من حوله، لا يعدله مكان آخر في الأرض، وكانت له مكانة في النفوس تتمثل في إشارة السارد إلى ما يبعثه المكان في النفس من طمأنينة لا تعدلها طمأنينة، يفزع إليه حين تشتد عليه الأمور، الجانب الآخر وهو انعكاس لما سبق الحديث عنه من سطوة للمكان على عناصر البناء الأخرى حتى أصبح هو البطل في هذا النص وهو قضيته الأولى.

وهنا نصل إلى سؤال الخاتمة الأخير، ومن ثم الدراسة ما المكان المسيطر في النص، والذي يسعى الكاتب لتقديمه؟

سبقت الإشارة إلى أن السارد في النص يتجنب الوقوف عند الملامح التفصيلية للمكان، وأن المتلقي حتى يقيم صورة واضحة للمكان لابد أن يعتمد بعده الواقعي؛ ليدرك تفصيلات المكان التخيلي، وإذا كنا نقول بأن الكاتب تعمد عدم الكشف عن تفصيلات المكان التخيلي، فإن هذا يعني أن المكان التخيلي لا يتفق مع الواقعي المحال إليه إلا بالأسماء، وإذا أضفنا إلى ذلك المقولة عن عدّ النص الروائي نصاً لغوياً "لا يشاكل الواقع المادي و لا يحاكيه وإن بدا كذلك وحصل عند القارئ شعور من هذا القبيل"(٤٠)، فإن هذا يعزز فرضية وجود مكان جديد في هذا النص يحاول السارد أن يقدمه، ولأن السارد يبتعد كما سبق القول عن تقديم البعد الجغرافي للمكان بشكل مباشر فإن هذا لا يمنع من البحث عن طرق قدم الناص من خلالها المكان، وهو ما يعني أنها صورة خاصة به حيال المكان الذي يتحدث عنه.

إذا تأملنا ما سبق وما قيل عن التقنيات الأربع التي يتخذها السارد أداة للحديث عن المكان، وهي: تقنية النعوت، وطريقة الإيراد، والتسمية، والتعبير عنها، هذه الأدوات الأربع تقوم في حقيقتها على نظام حضور هذه الأمكنة في مخيلة السارد، فالأمكنة قد صنفت بناء على النعوت المعطاة: طويل ضيق، عميق، والتجاور والتعدد الذي وردت فيه يعني تجاورها في ذهنه بوصفها تمثل قيمة اجتماعية واحدة بغض النظر عن مواقعها في الحقيقة، وقيمتها تأتي مما تملكه من تسمية، ففي هذا المكان - كما في ذهن السارد - تنقسم الأشياء إلى نوعين: ذات أسماء ومهملة من التسمية، فالتسمية تبين ما تنتمي إليه من مستوى اجتماعي غني أو فقير، راق أو متدن، وحميمية هذه الأمكنة، وقربها من نفس السارد تبدو من خلال اللغة التي تعبر عنها، الضمير المتكلم أو الغائب، وملامح التعريف والتنكير.

---

(٤٠) محمد ناصر العجمي، مرجع سابق، ص ٣٢٥.

في هذا المكان لا يأتي الشارع مجالا لتبيين حدود الأشياء، أو ليبني خريطته، لكنه يأتي فضاء يلتقي فيه الناس، يقدمون حياتهم اليومية، ويعرضون حاجاتهم، يأكلون ويشربون، ويلعبون، ويتعارفون، ويقرؤون أحيانا، ولا تأتي المدرسة أو المسجد فضاء لنشاط واحد بقدر ما تنفتح على غيرها من الأمكنة، وتتواصل معها، بينما تنغلق البيوت وحدها على أصحابها، في العمق الذي يمتد أكثر من ثلاثين متراً حيث الدهاليز والحنيات، والغرف المتداخلة. وتأخذ هذه الأمكنة الأربعة الأهمية، وتسيطر على الأمكنة الأخرى؛ لتحيلها إلى أمكنة هامشية حتى لو كانت مقاهٍ، أو مستشفيات، أو أسواقا، هذا هو المكان كما يبدو في النص، وكما يتراءى في ذهن الناس.